اللبنانيون بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة!

أنطوان مسرّه

كرسي اليونسكو في جامعة القديس يوسف

يروي فؤاد بطرس انه في استعراض الظروف والتطورات والتوقعات طرح عليه الرئيس فؤاد شهاب

السؤال: هل تعرف سابقة كان على سياسي لبنان أن يختار بين مصلحته الخاصة ومصلحة البلد فآثر مصلحة البلد على مصلحته الخاصة؟ يقول: "ترددت قليلاً وأجبته بأني لا أذكر سابقة من هذا القبيل. فصمت وهز رأسه. وحيال دقة الظروف والتوقعات السوداء نصحني عندما ودعنّي بأن أحمل السلم بالطول لا بالعرض قاصدًا الحياة واشكالاتها... وأني لا أزال أتأرجح بين الطول والعرض حتى اليوم" (فؤاد بطرس، **المذكرات**، اعداد أنطوان سعد ومدخل لخليل رامز سركيس، دار النهار، 2009، 604 ص).

***

كيف يتصرف لبنانيون في حال التضارب بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة؟ أستخلص من تجربتي في الحياة الاستحالة البشرية في تنزيه الذات عن اي مصلحة! النموذج الوحيد هو يسوع الذي لا يملك منزلاً ولا وسادة ولا شيئًا خاصًا به. كان متحررًا من الدفاع عن أي مصلحة خاصة. واستلهم من القديسين في التجرد من أي مصلحة خاصة في مقاربة الحقيقة. وأستخلص من خبرتي، حتى في أرقى مستوى، خمسة أنواع من السلوكيات.

1. المصلحة العامة أولاً! يوجد حالات بالغة الصعوبة والمخاطرة بالنسبة لأي انسان في القدرة على تغليب المصلحة العامة على تعدّد وتنوّع المصالح والمصلحة الخاصة والأوضاع والظروف. لا يتوجب في كل الحالات قلب الطاولة على الجميع! قد يؤدي ذلك الى اضرار جسيمة ووطنية. ما يمكن فعله تسجيل موقف تعبيرًا عن مسؤولية ودفاعًا عن مبدأ.

2. مصلحتي الفردية فقط! المصلحة الفردية طاغية باطلاقية لدى البعض. لا يعاني الشخص هنا من أي نزاع داخلي! عندما تتعارض المصلحة العامة مع مصلحته الفردية: لا نزاع، لا صراع داخلي، لا تردّد: انا أولاً! انها قمة النرجسية التي قد تصل الى حالة مرضية عيادية sociopathie كما نعيشه في جهنم لبنان اليوم.

بعض الأشخاص الذين توسمت فيهم الحرص على المصلحة العامة في قضايا عامة بالمطلق وبالتالي لا علاقة لهم بها شخصيًا، لا مباشرة ولا بشكل غير مباشر، يدافعون عن

المصلحة العامة بقناعة وثبات! لكن اذا طرأت حادثة طفيفة تتعارض مع مصلحتهم الفردية: لا تردد، لا نزاع داخلي، المصلحة الفردية أولاً... وأخيرًا!

3. المهم: الصورة الاجتماعية! بالنسبة للبعض صورتهم هي الأهم في المجتمع وتجميل الصورة والتهرّب من المواجهة حرصًا على الصورة بالرغم من القناعة الذاتية وحرصًا فقط على الصورة! هاجس الصورة أصبح ملازمًا لكل من يطمح لموقع عال في ما يُسمى الجمهورية اللبنانية في حين أن عبارة جمهورية république مُشتقة من res publica، أي الشأن العام.

4. تدوير الزوايا: لبنانيون في مواقع مسؤولية، أو هم مرتبطون بعلاقات مصلحية مباشرة أو غير مباشرة، أو هم مدجّنون على الزبائنية، في حالة تعارض مصلحة عامة مع مصلحتهم الفردية، لا يتنكرون بالمطلق للمصلحة العامة، بل حرصًا على علاقاتهم الاجتماعية أو حلمهم مستقبليًا بالارتقاء الى مركز مرموق، يتجنبون أي وضوح في الموقف! يسعون الى تدوير الزوايا. الهدف: عدم الاضرار بالمطلق لزعيم، ولا اضرار بالمطلق لجهة منافسة. انهم يعتمدون سلوكًا لبنانيًا سائدًا في أقوال شعبية: **معليش، بيناتنا، شوفيها، لا تحمل السلم بالعرض، طرّيها...**

اذا كان الموضوع يتعلق بشؤون غير جوهرية فلا بأس بذلك. لكن عندما يتعلق الموضوع بمبدأ أساسي ومعيار ناظم للحياة العامة، فهذا النوع من تدوير الزوايا يتراكم مع الزمن ثم ينفجر بعد سنوات مُحملاً بكل رواسب و"تظبيطات" و"ترقيعات" الماضي! بعض اللبنانيين خبراء في التموضع وعلى مسافة واحدة من الجميع équidistants. لا تُستعمل هذه العبارة في أصلها الأجنبي إلا في علم الهندسة géométrie، ما يعني انها تتطلب درجة قصوى من الحسابات ولا شيء الا... الحسابات!

5. بعض جماعات الاعتدال والسلم الأهلي والحوار: قد يكون هؤلاء حسني النية، أو اصبحوا مدجنيّن على شعارات متداولة في الحوار والتوافق، أو غالبًا غير مُدركين لقواعد ملازمة أصلاً لكل دولة وأي سلم أهلي ثابت وأي حوار! في بيانات مطوّلة ومواقف رنانة ومُلتبسة حول الحرص على الوحدة الوطنية والسلم الأهلي، يساهمون في التواطئ مع قوى مُحتلة تُمارس الابتزاز في الخيار: اما القبول بالدولة المحتلة أو زعزعة السلم الأهلي! على عكس ذلك يرد في احدى اليافطات الانتخابية على أوتوستراد الدورة – جونيه: "دولة وسلم أهلي".

في أحد البيانات ترد عبارة "دولة" 18 مرة بدون ذكر ما يلازم الدولة في احتكار القوة المنظمة. قال عندئذ أحد المناضلين: هل تريدون العودة الى السلاح؟ نعم... سلاح الموقف!

***

يصب كل ذلك في ذهنية لبنانية مرضية هي المعليشية في قضايا جوهرية لا تتحمل لا التسوية ولا اطلاقًا المساومة! أدرك ذلك دبلوماسيون مُعتمدون في لبنان في قول أحدهم: "اذا كنتم تريدون الاستمرار في الترقيع فلا تعتمدون بعد اليوم على دبلوماسيتنا!"

عندما نعيش سلوكيات ملتبسة أو تجميلية في التعاطي مع الحقيقة ومع قضايا الشأن العام، ترد في البال ما تقوله القديسة تريزا الطفل يسوع: "أي مفاجئة سيكون لنا في الآخرة حين نقرأ تاريخ النفوس!"

ليس هدف هذا العرض النقد، ولا اطلاقًا تبرئة ذاتية، بل التركيز على صفاء الفكر وصدقيته. كان يسوع متفهمًا ورحومًا مع الخطأة وضعيفي الايمان والمترددين وغير المدركين لأهمية ما يجري. لكن موقفه الدائم: "الويل لكم" بالنسبة الى الكتبة والمخادعين ومن يصفهم القرآن تكرارًا "بالمنافقين". يقول Paul Bourget: "اعمل كما تفكّر والا ستفكّر كما اعتدت ان تعيش!"

هل الضمير في عالم اليوم في حالة غيبوبة في التربية والحياة اليومية والحياة العامة؟ طرحت مرة السؤال خلال مناقشة على احد المتحاورين: هل انت ضميريًا مُقتنع بما تقول؟ اعتبر سؤالي إهانة! كنت اسعى، بصدق على ما اظن، لمراجعة ممكنة لموضوع قيد البحث. صفاء الضمير أساس كل فكر وسلوك.